مكتبة البنين
قسم الدوريات

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الثالث عشر

١٤١١هـ / ١٩٩٠م

مستقبل الثقافة في مصر لطه حسين
دراسة وتحليل

دكتور أحمد زكريا الشلّق
أستاذ مساعد بقسم التاريخ
جامعة عين شمس

- خلفية فكرية
- تحليل مضمون
- نظرة نقدية

-١-

يبدو جلياً أن من سمات العقل والفكر العربيين معاودة طرح مشكلات النهضة والتحديث بين الحين والآخر، حتى ما كان منها قد لقى اهتماماً، وربما حسماً، من جيل النهضة الأول، وكأنه ليس بمقدورنا أن نكمل من حيث انتهى ذلك الجيل، لنفرغ لمستجدات زماننا. وخير دليل على ما نقول قضية الهوية والانتماء الحضاري، التي على أساسها يكون التوجه، فقد شغلت هذه القضية المثقفين والمفكرين المصريين، منذ انفتحت أبواب مصر على معطيات الحضارة الحديثة في بداية القرن التاسع عشر، والتقى «الأنا بالآخر».. وها نحن على أعتاب القرن الحادي والعشرين نعيد صرح القضية، كما أعادها طه حسين عام ١٩٣٨، وأن كنا نعيد طرحها هنا في أطار تاريخ الفكر المصري، لنحاول أن نتلمس إلى أي مدى تقدمنا أو توقفنا، حتى وأن بدونا كما لو كنا نناقش المسلمات.. مدخلنا إذن لقضية النهضة والمدنية مدخل تاريخي في مجاله الفكري.

وقضية التمدن والتحديث، والنموذج الذي نتمثل به ونحتذيه مازالت وستظل تؤرق الفكر طالما أن هناك معركة للنهضة، وطالما أن مشروعها قائم.. ومادتنا هنا بحكم

اشتغالنا بالتاريخ هي تراث الفكر في ماضينا.. وخطاب النهضة لايزال يتردد، بشتى تنويعاته، وخاصة عند منعطفات التاريخ وحوادثه الجسام. وعلينا أن نراجع تراثنا الثقافي، مراجعة نقدية متأملة، على ضوء العقل والمنهج العلمي الحديث.

وما هذه المقالة سوى مراجعة لاسهام «حالة خاصة» في مشروع النهضة، هي حالة طه حسين في خطابها الفكري المباشر والممثل في كتابه أو تقريره الهام «مستقبل الثقافة في مصر» الذي أصدره عام ١٩٣٨، متوجاً به مرحلة من حياته الفكرية قوامها ربع قرن من الزمان، أي منذ تخرج من الجامعة المصرية بأول دكتوراه تمنحها عام ١٩١٤. لقد كان طه حسين في تلك الفترة يكتب في الصحف، ويدرّس بالجامعة، ويلقي المحاضرات العامة ويؤلف الكتب، ليبلور تدريجياً خطوط مشروعه للنهضة، حتى استكمل عناصره نقطة نقطة، متواكباً مع محاولات مصر استكمال استقلالها خطوة خطوة منذ ثورة ١٩١٩ وحتي تحقيقها جزءاً من استقلالها الوطني بمعاهدة ١٩٣٦، وما إن وقعت هذه المعاهدة حتى كان طه حسين قد استكمل عناصر موضوعه – مشروع النهضة – في مجال خلق له بالدرجة الأولى وهو الثقافة والتعليم.

ولسنا نستطيع أن نفصل الكتاب عن كل ما فكر فيه طه حسين أو كتب عنه منذ اشتغل بشئون الفكر والثقافة والتعليم، كما لا يمكن فصل مشروع طه حسين ذاته، في مجاله، عن مشروع مصر لاستقلالها ونهضتها، وقد اعترف طه حسين نفسه بهذه الحقيقة وهو يقدم لكتابه «مستقبل الثقافة في مصر».

وثمة حقائق تبدو معروفة عن حياة طه حسين، لكننا لا نرى بأساً من الاشارة إليها لتكسب التحليل النهائي دلالاته، لأنها ساهمت في بنائه الفكري وتكوينه الثقافي، ووعيه بقضية النهضة، من هذه الحقائق تأثير الأزهر والثقافة الاسلامية التي تعلمها فيه خلال العقد الأول من هذا القرن (١٩٠٢–١٩١٠) سواء كان هذا التأثير بالسلب أو بالايجاب، فمن المعروف جيداً أن طه حسين درس الأدب العربي والبلاغة والنحو وجمع ذخيرته من ذلك خلال هذه السنوات. ومنها كذلك اتصاله بيئة المثقفين ثقافة مدنية حديثة (المطربشين) واختلافه إلى ندواتها وكتابته في صحفها ودراسته على أيدي المستشرقين في الجامعة المصرية، ومنها كذلك إقباله على الثقافة الفرنسية بحماسة شديدة ودراسته

بجامعة السوربون ليعود بالدكتوراه منها عام ١٩١٩ ويشتغل أستاذاً للتاريخ اليوناني والروماني بالجامعة المصرية حتى عام ١٩٢٥، فأستاذاً للأدب العربي بها بعد ذلك. واهتمامه بالثقافة الكلاسيكية وبقادة الفكر الانساني يحمل مضمون توجهه نحو النهضة، التي تقتضي دراسة هذه الأصول جميعاً. ولم يكن طه حسين وحده في هذا المجال، فقد برز معه، خلال العشرينات جيل جديد، يتجاوز بأفكاره واسهاماته أفكار جيل الطهطاوي ثم جيل محمد عبده وأن استقى من نبعهما.. جيل برزت فيه أسماء الدكتور محمد حسين هيكل وسلامة موسى وعباس العقاد وعلي العقاد ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين ومنصور فهمي وإسماعيل مظهر وغيرهم لقد طرحوا جميعاً قضية تحديث مصر ونهضتها على بساط البحث وكان النموذج الأوروبي ماثلاً أمامهم، بدرجات متفاوته، وبرزت اتجاهات جديدة حول قضية الخلافة الاسلامية، وعلاقة الدين بالدولة بشكل عام وعلاقة الدين بالعلم والمدنيه الحديثة.. وجاءت الأطروحات الجديدة بمعالجات ومناهج غير مألوفة وبرؤى متقدمة بالنسبة لعصرها.

وكان إسهام طه حسين خلال العشرينات كبيراً، وكان تأثير ثقافته الفرنسية قد طغى، إلى حين، على ثقافة العربية الاسلامية، وأن لم يمحها، وبدا في نظر الكثيرين مستغرباً داعياً للغرب، وأحياناً عميلاً، حين دعا إلى فصل الدين عن العلم وقوانينه ونتائجه، وبتطبيقه مناهج أوربية لم تعتدها الثقافة العربية، بالرغم من أنه كان يعالج موضوعات من صميم تراث تلك الثقافة داعياً إلى الاجتهاد في بحوث الأدب باخضاعها لمناهج البحث التي تعلمها عن العقلانية الفرنسية، عن ديكارت وكونت ودوركايم وغيرهم...[١].

وقد قاده ذلك إلى الأزمة التي أثارها كتابه «في الشعر الجاهلي» عام ١٩٢٦ والتي هي في صميمها أزمة تطبيق منهج، برغم الملابسات الدينية والسياسية، إنه يريد أن يمتحن كل شيء بالاستقراء وبالبراهين العقلية – لا النقلية – ولسنا هنا بصدد تحليل هذه الأزمة ولكن تكفي الاشارة إلى أنها كانت دفعة قوية نحو استكمال مشروع النهضة عنده، ولم يتراجع طه حسين إلا تراجعاً ظاهرياً، لأنه حذف الفصول التي اعتبرت مساساً بالدين وأضاف فصولاً جديدة تؤصّل المنهج وتدعمه، بل أكثر من هذا

نشر في نفس العام مجموعة مقالات بعنوان «بين العلم والدين» نادى فيها بفصلهما تماماً وأكد إيمانه بالتفكير العلمي المجرد ودعا إلى إستبعاد فكرة الحكومة الدينية، ورأى أن الوطنية لا تقوم إلا على أساس المنافع السياسية والاقتصادية وحدها ورأى كذلك أن مصر تسرع الخطى لتصبح جزءاً من أوربا[٢] .

وليس معنى ما سبق أن طه حسين قد انقطع عن جذوره أو أنه تخلى عن تراثه وإنما حاول معالجته على ضوء منهج البحث الحديث.. كما كانت مادته واهتماماته مزدوجة، فبينما كان يكتب ويترجم ويلخص مقالات لڤولتير ورينان وبول ڤاليري وأندريه جيد، كان في نفس الوقت يكتب عن المتنبي وأبو تمام وابن الرومي كما كتب عن حافظ وشوقي. وعندما اتجه معاصروه إلى معالجة الموضوعات الاسلامية خلال الثلاثينات، لم يجد طه حسين نفسه بعيداً عنهم فدخلت الموضوعات الدينية الصرفة (الاسلامية) دائرة اهتمامه، وشارك في الموجة بكتابه «على هامش السيرة» بالرغم من أنه خضع لنقد شديد في تناوله لسيرة الرسول[٣] ، واتهم بأنه لم يكن صادقاً فيما كتب وأنه لم يبتغ غير خدمة الأدب والفن.

إن طه حسين لم يتجه للتاريخ الاسلامي بصفته ماضياً فقط، وإنما كان منسجماً في هذا التوجه مع معادلة النهضة، أي أن الاسلام كان عنصراً أصيلاً في رؤية طه حسين للتطور، كل ما حدث أن الشعر لم يعد هو مادته وإنما التاريخ الاسلامي، أما المنهج فأمره مختلف أي أن طه حسين وأبناء جيله أرادوا تأصيل فكرة التراث الوطني لمصر باعتبار الاسلام عنصراً حاسماً في هذا التراث، ولكنهم جميعاً اتخذوا أدوات منهجية في معالجة المادة التراثية أقرب إلى العقلانية[٤] .

وعندما وقّعت مصر معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا، ثم اتفاق مونترو عام ١٩٣٧ الخاص بإلغاء الامتيازات الأجنبية مع الدول الأوربية، اعتقد الكثيرون، ومنهم طه حسين، أن مصر تستقبل عهداً جديداً من حياتها إن كسبت فيه بعض الحقوق فإن عليها أن تنهض فيه بواجبات خطيرة. وقد دفعت هذه التطورات فريقاً من شباب الجامعة لأن يسألوا قادة الرأي في مصر عن واجب مصر بعد المعاهدة، وقد تحدث إليهم طه حسين ضمن من تحدثوا[٥] ، ولكنه لم يقنع بما قال واستقر في نفسه أن يكتب

بالتفصيل عن واجب مصر في الثقافة والتعليم حيث أن «واجبنا في ذات الثقافة والتعليم بعد الاستقلال أعظم خطراً وأشد تعقيداً مما تحدثت به»[٦] وجاء كتاب مستقبل الثقافة في مصر نتيجة لذلك. ولم يكن طه حسين وحده في هذا المجال وإنما صدرت كتب أخرى معاصرة هي أقرب إلى التقارير أو البرامج التي ترسم خطوط وتوجهات نهضة مصر في مرحلتها الجديدة، مرحلة ما بعد معاهدة عام ١٩٣٦ واتفاقية ١٩٣٧، ومن أشهر هذه الكتب كتاب مريت غالي «سياسة الغد» وكتاب حافظ عفيفي «على هامش السياسة» وكتاب محمد عبد الحميد مطر «التعليم والمتعطلون في مصر»، وكذلك كتاب محمد علي علوبة «مبادىء في السياسة» وكتاب إبراهيم بيومي مدكور ومريت غالي «الأداة الحكومية» وكلها صدرت بين عامي ١٩٣٨، ١٩٤٥.

ويدلنا طه حسين على سبب آخر لتأليفه هذا الكتاب يتمثل في أنه كان قد أوفد من قبل وزارة المعارف لتمثيلها في مؤتمر اللجان الوطنية للتعاون الفكري الذي عقد في باريس صيف العام السابق، كما انتدب لتمثيل الجامعة في مؤتمر التعليم العالي الذي عقد في باريس أيضاً في صيف ذلك العام أيضاً، وأنه لذلك أصبح واجباً عليه أن يقدم تقريرين، عن المؤتمرين إلى الوزارة والجامعة، ولكنه لم يفعل، وأسّر في نفسه أن ينجز ذلك خلال تأليف كتابه، ليحقق به هذين الهدفين معاً، فيتوجه بكتابه إلى الشباب، وإلى المسئولين كذلك، متضمناً آراءه وأفكاره حول مستقبل الثقافة والتعليم في مصر، والأهم من ذلك أن طه حسين رأها فرصة يستكمل بها خطوط رؤيته لمشروع نهضة مصر، ويستكمل بها رسالته التي أخذها على عاتقه. ولذلك فالكتاب ليس كتاباً علمياً أو تاريخياً بالمعني المألوف، وإنما هو بيان مطول، وبرنامج مسهب يشخص الداء ويقترح الأدواء، ويرسم مستقبل الثقافة والتعليم لمصر المعاصرة، كأساس لنهضتها وتحديثها، في لغة خطاب فكري مباشر، واضح وجلي.

لقد بات واضحاً أن على مصر، أن تهتم بنوعية حياتها الوطنية، وقد قوم طه حسين هذه النوعية على ضوء مبادىء استمدها، إلى حد ما، من ابن خلدون، الذي درس فلسفته الاجتماعية، كما استمدها من مفكرين فرنسيين، أخصهم كونت ورينان ودركايم وأناتول فرانس وهي أن الحضارة غاية البشرية، وأن أوربا الحديثة قد سجلت لنفسها

أعلى مرحلة بلغها التطور الحضاري، حيث يتحقق التوازن المثالي، الذي يترك للعقل حريته في حكم العالم الاجتماعي واخضاع الطبيعة بتطبيق العلم، وسن الشرائع التي تستهدف السعادة البشرية، وإقامة حكومات تحترم القانون وتوفق بين المصالح.. وكانت أوربا تعني عنده ثلاثة أشياء: الحضارة الانسانية والفضائل المدنية والديمقراطية.. ورغم تجاهله للأفكار السياسية المخالفة التي كانت ألمانيا وإيطاليا تبشران بها في ذلك الحين (قبل عام ١٩٣٨ عام إصدار الكتاب) إلا أن أوربا كانت تمثل في نظره العالم الحديث[٧] ومن هنا كانت نقطة البداية في كتابه هذا: أين نحن من الحضارة الحديثة أو أين نحن من أوربا؟

ومن الملاحظ أنه خلال استفتاء قامت به مجلة الهلال عام ١٩٣١، كان محوره «حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟» كان رد طه حسين أنه إذا كان لابد أن يدلي برأي حول الخيارات المطروحة «فالمثل الأعلى، فيما اعتقد، هو أن نحتفظ من الحضارة المصرية القديمة بما يلائمنا وهو الفن، ومن الحضارة العربية بالدين واللغة، وأن نأخذ من الحضارة الأوربية بكل ما نحتاج إليه. وليس في هذا شر مادمنا نحتفظ بشخصيتنا المصرية فلا تفسد علينا هذه الحضارة الأوربية حياتنا على أننا أمة لها مقوماتها الخاصة» وأضاف بأن حياتنا الحديثة رهن الحضارة الأوربية وعليها تعويلنا في ما يمس الحياة المادية، سواء ما يتعلق بالنظم المتبعة في ميادين التجارة والصناعة والاقتصاد، أو ما يتعلق بالحياة اليومية. ونحن مرتهنون بهذه الحضارة نفسها في ما يخص حياتنا العقلية «فأنت مكره الآن على أن تفكر كما يفكر الأوربيون، لا كما كان يفكر المصريون القدماء ولا كما كان يفكر العرب»[٨] .

إن طه حسين إذن لم يبدأ تنظيم أفكاره في كتابه مستقبل الثقافة في مصر «من فراغ، وإنما باستجماع أفكاره السابقة والتي انتشرت في مؤلفاته الهامة خلال العشرينيات والثلاثينيات، وتطويرها في كتابه الجديد، لتخرج في نسيج فكري متكامل، يحدد المنطلقات ويقدم رؤيته للتحديث. ونود أن نشير إلى أن الكتاب يحتوي على قسمين أساسيين من ناحية موضوعاته أولهما يتناول قضية الهوية والانتماء والتوجه الحضاري، وثانيهما يتناول قضايا التعليم والثقافة في مصر.

-٢-

(أ) قضية الانتماء والتوجه الحضاري :

يبدأ طه حسين بعبارة على قدر كبير من الأهمية ربما لم يعبأ بها نقاده، يذكر فيها «أريد لكل مصري مثقف محب لوطنه، حريص على كرامته ألا نلقي الأوربي فنشعر بأن بيننا وبينه من الفروق ما يبيح له الاستعلاء علينا والاستخفاف بنا وما يضطرنا إلى أن نزدري أنفسنا ونعترف بأنه لا يظلمنا فيما يظهر من الاستطالة والاستعلاء[٩] وواضح من العبارة أنه يريد لمصر والمصريين أن يكونوا أنداداً للأوربيين شركاء له في الحضارة الانسانية، وقد قاده ذلك بطبيعة الحال إلى مناقشة قضية هوية مصر الثقافية، وانتماؤها وتوجهها الحضاري، كضرورة أولية، قبل طرح أفكاره الأساسية.

بدأ طه حسين بأن طرح سؤاله : أمصر من الشرق أم من الغرب؟ وأوضح أنه لا يقصد بالطبع الشرق الجغرافي والغرب الجغرافي، وإنما يقصد الشرق الثقافي والغرب الثقافي.. ثم يوضح تساؤله على نحو آخر فيتساءل : هل العقل المصري شرقي التصور والادراك والفهم والحكم على الأشياء، أم هو غربي التصور والادراك والفهم والحكم على الأشياء؟ ومن الجلي أنه كان يقصد بالشرق هنا، ليس الشرق العربي القريب (أو الأوسط) وإنما يقصد الشرق البعيد (الأقصى) لأنه تساءل: أيهما أيسر على العقل المصري: أن يفهم الرجل الصيني أو الياباني، أو أن يفهم الفرنسي أو الانجليزي؟ تلك هي القضية الأولى التي أراد أن يحسمها قبل أن يوضح الأسس التي ينبغي لمصر أن تقيم عليها ثقافتها وتعليمها[١٠] .

وحتى يجيب على هذه التساؤلات راح يستقرئ التاريخ، تاريخ العقل المصري، ليحاول إثبات عدة حقائق:

أولها : أننا لا نعرف أن هناك صلات بيننا وبين الشرق البعيد، مستمرة ومنتظمة تؤثر في تفكيرنا أو نظمنا.

وثانيها : أن الصلة بين المصريين القدماء والبلاد الشرقية لم تجاوز الشرق القريب (الشام والعراق) أي الشرق الواقع في حوض البحر المتوسط..

وثالثها : أن علاقات مصر كانت حقيقية مع حضارة اليونان في عصور ازدهارها منذ القرن السادس قبل المسيح إلى أيام الاسكندر(١١) .

وقد رتب طه حسين على ذلك حقيقتان أولهما : أن العقل المصري اتصل بالشرق القريب اتصالاً مؤثراً ومتأثراً، كما اتصل بالعقل اليوناني منذ عصوره الأولى اتصال تعاون وتبادل للمنافع في الفن والسياسة والاقتصاد. وثانيهما: أن العقل المصري منذ عصوره الأولى إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر المتوسط، وأن تبادل المنافع فإنما يتبادلها مع شعوب البحر المتوسط ثم يفصّل طه حسين الحديث عن علاقة مصر ببلاد اليونان، وما كتبه اليونانيون عن مصر وتأثيرها في حضارتهم، ليؤكد على أنه عندما يجب أن نلتمس المؤثر الأساسي في تكوين الحضارة المصرية والعقل المصري، فلابد أن نفكر في البحر المتوسط، وفي الظروف التي أحاطت به، والأمم التي عاشت حوله. ثم يضيف: إن المصريين يرون أنفسهم شرقيون وأنهم لا يفهمون من الشرق معناه الجغرافي وحده، بل معناه العقلي والثقافي، فهم يرون أنفسهم أقرب إلى الهندي والصيني والياباني منهم إلى اليوناني والايطالي والفرنسي(١٢) .

وكان طه حسين يقصد بذلك دعوة جماعة «الرابطة الشرقية» التي كانت تنادي بالتضامن مع أهل الشرق الأقصى في مواجهة كل ما هو غربي، وكانت هذه الرابطة قد تأسست في أواخر العشرينيات، وقد ترأسها السيد عبد الحميد البكري وكانت في نظر البعض بديلاً عن الجامعة الاسلامية، ولم يقدر لاتجاهها أن يستمر(١٣) .

ومن المهم أن نلاحظ أن طه حسين قد ميّز بشكل واضح بين شرق أقصى بعيد، وشرق أدنى قريب، وهو ما لم يلتفت إليه نقاده حين ذكر أحدهم، وهو الاستاذ سيد قطب أن الدكتور قد قسم الدنيا إلى قسمين لا ثالث لهما: قسم تمثله الصين واليابان والهند وإندونيسيا، وقسم تمثله فرنسا وإنجلترا، أو كل دول أوربا وأمريكا(١٤) لأن طه حسين قد تحدث عن وجود الشرق الأدني (يقصد العربي) وأن لم يسمه باسمه فذكر بوضوح «أنا أفهم أن نشعر بالقرابة المؤكدة بيننا وبين الشرق الأدنى لا لاتحاد اللغة والدين فحسب بل للجوار الجغرافي، وتقارب النشأة والتطور التاريخي، أما أن نتجاوز هذا الشرق القريب إلى ما وراءه فلا أفهم أن يقوم الأمر فيه على الوحدة العقلية أو على

التقارب التاريخي..»[١٥] فقرابة مصر للشرق الأدني أو القريب مؤكدة عنده لامراء فيها لكنه لا ينظر إلى هذا الشرق من زاوية أنه شرق عربي إسلامي، وإنما طبقاً لنظريته أي باعتباره هذا الشرق القريب الذي يقع في حوض البحر المتوسط»[١٦] فيلحق بذلك الشرق العربي هو الآخر بعالم البحر المتوسط!

وينتقل طه حسين إلى نقطة أخرى يتحدث فيها عن مكونات الوحدة السياسية أو عناصر القومية، فيستبعد وحدة الدين ووحدة اللغة، كمقومين من مقومات تكوين الدول ويذكر أن المسلمين أنفسهم، منذ عهد بعيد، عدلوا عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساساً للملك وقواماً للدولة.. وأن المسلمين أقاموا سياستهم علي المنافع وحدها وأنه لم يأت القرن الرابع للهجرة، حتى قام العالم الاسلامي بقيام الدولة الاسلامية، وظهرت القوميات وانتشرت في البلاد الاسلامية دول كثيرة، يقوم بعضها على المنافع الاقتصادية والوحدات الجغرافية ويقوم بعضها الآخر على ألوان أخرى من المنافع ويضيف أن السياسة شيء والدين شيء آخر.. وأن هذا هو التصور الذي تقوم عليه الحياة في أوربا، التي تخففت من أعباء العصور الوسطى، وأقامت سياستها على المنافع الزمانية، لا على الوحدة المسيحية ولا على تقارب اللغات والأجناس[١٧] وبذلك يرى طه حسين بما لا لبس فيه، أن عوامل الدين واللغة والجنس والتي سبق أن نظر إليها بعين الاعتبار عند حديثه عن الشرق «الأدنى أو القريب» لا تشكل أسساً لتكوين الدول في العصر الحديث وإن استمد فكرته من نظرة خاصة لتاريخ الاسلام، قبل أن يؤكد أن هذا هو ما تقوم عليه الحياة الحديثة في أوربا التي أقامت سياستها على المنافع الزمانية لا على الوحدة المسيحية ولا على تقارب اللغات والأجناس.

ثم يعود طه حسين ليؤكد فكرة اتصال مصر بالحضارة اليونانية، حتى أصبحت دولة يونانية أو كاليونانية، وأنه عندما جاء الاسلام إليها، تلقته لقاء حسناً واتخذته ديناً واتخذت لغته العربية لغة لها، ويتساءل: فهل جعلها هذا أمة شرقية؟ كلا... ثم أضاف قياساً آخر ليؤكد النفي، وهو أن المسيحية لا تعدُ أن تكون عنصراً من عناصر العقل الأوربي[١٨] ومن الواضح أن التساؤل هنا لا ضرورة له في الأصل لأنه ليس ثمة افتراض بأن الاسلام جعل مصر أمة شرقية ومن ثم فإن القياس الذي أورده بشأن

المسيحية وأوربا لا أهمية له.

ومن الملاحظ كذلك أن طه حسين يرى أن قوام الحياة العقلية في أوربا إنما هو اتصالها بالشرق عن طريق البحر المتوسط «فما بال هذا البحر ينشئ في الغرب عقلاً ممتازاً متفوقاً، ويترك الشرق بلا عقل أو ينشئ فيه عقلاً منحطاً ضعيفاً؟ وكأن عامل البحر هو الذي «ينشئ» ثم يستنتج في النهاية أنه ليست بين الشعوب التي نشأت حول بحر الروم وتأثرت به فروق عقلية وثقافية، وإنما هي ظروف السياسة والاقتصاد، تدور بين هذه الشعوب مواتية هذا الفريق ومعادية ذلك الفريق فلا ينبغي أن يفهم المصري أن بينه وبين الأوربي فرقاً عقلياً قوياً أو ضعيفاً [١٩] .

ينتقل طه حسين بعد المقدمات السابقة إلى نقطة أخرى يثبت من خلالها أن نهضة مصر منذ أوائل القرن الماضي لا خلاف في أنها تأخذ بأسباب الحياة الحديثة، على نحو ما يأخذ بها الأوربيون في غير تردد ولا اضطراب ويضيف «إن حياتنا المادية أوربية خالصة والمثل الأعلى للمصري في حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوربي.. نفعل ذلك عن علم به وتعمد له.. ثم تجاوزنا ذلك إلى جميع الانحاء التي يحيا عليها الأوربيون فاصطنعناها لأنفسنا، غير متخيرين ولا محتاطين، لا مميزين بين ما يحسن منها وما لا يحسن وما يلائم منها وما لا يلائم»[٢٠] معنى ذلك أنه يرى واقعنا يسير في تقليد الأوربيين حتى فيما يلائمنا وما لا يلائمنا مما يوحي بأن له موقفاً انتقائياً، يرى أن ثمة ما يلائم وما لا يلائم، وأننا في تقليدنا ينبغي أن نميز ونحتاط ونتخيّر.

وقد راح طه حسين يضرب أمثلة على أخذ مصر بالنظم والتشريعات الأوربية في نهضتها الحديثة فيذكر أن التشريع بالقوانين المدنية أخذ عن النظم الأوربية، كما أن النظم المالية والادارية والاقتصادية نقلت عن الأوربين، وأنه بالرغم من استبقاء بعض النظم القديمة لأنها تتصل بالدين فإن كل شيء يدل على أننا نريد أن نتصل بأوربا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم نصبح جزءاً منها لفظاً ومعني ثم ينتقل إلى التعليم فيذكر أننا أقمنا صروحة ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضي على النحو الأوربي الخالص.. كما أننا نكون أبناءنا في مدارسنا تكويناً أوربياً لا تشويه شائبة..[٢١] .

ومن الملاحظ أن طه حسين يؤكد على فكرة أن توقيع معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات، يعتبر التزاماً صريحاً بأننا سنسير سيرة الأوربيين في الحكم والادارة والتشريع معتقداً، بكثير من المبالغة، أن ثمة التزاماً صريحاً قاطعاً « بينما الأمر لا يعد، خاصة فيما يتعلق باتفاق مونترو عام ١٩٣٧، أن مصر بما تتخذه من تشريعات وقوانين ستكفل حقوق الأجانب على أراضيها »[٢٢] .

وقد علل طه حسين الفارق بيننا وبين الأوربيين بأنه فارق الزمان ليس غير، فهم قد بدأوا حياتهم الحديثة في القرن الخامس عشر، وأخرنا الترك العثمانيون فبدأنا حياتنا في القرن التاسع عشر، وبذلك يلقي بمسئولية إنقطاع اتصالنا بأوربا ونهضتها على فترة الحكم العثماني بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، ثم يضيف بأن السبيل إلى اجتياز الهوة بيننا وبين الأوربيين هي أن نسير سيرتهم، ونسلك طريقهم، لنكون لهم أنداداً وشركاء في الحضارة، خيرها وشرها حلوها ومرها. لقد كان في وعيه إذن مسألة الندية والمشاركة في الحضارة، وهو ما لم يلق اهتماماً من نقاده، بينما أكد على هذا المعني في أكثر من موضع خاصة عندما يضيف : «نحن نريد أن نضارع الأمم الأوربية في قوتها الحربية لنرد عن أنفسنا المغير ولنقول لأصدقائنا الانجليز بعد أعوام: انصرفوا مشكورين فقد أصبحنا قادرين على حماية القناة.. نريد أن نكون شركاءه (الأوربي) في الحياة وأعوانه عليها لا خدمة ووسائله إلى هذه الحياة»[٢٣] .

ومن الملاحظ كذلك أنه تجاوز فكرة البحر المتوسط وحضارته، وأصبح يستخدم مصطلح حضارة «أوربا وأمريكا» ويقرن بينهما في النموذج الذي ينبغي أن يحتذي من جانب المصريين، فتخطى العامل الجغرافي العقلي، الذي ركز عليه في البداية، وجعل يستخدم الغرب على إطلاقه[٢٤] .

ولأن طه حسين يعلم سلفاً ما ستثيره هذه الأفكار من اعتراضات ومخاوف، فقد أخذ على عاتقه الرد عليها، وأول هذه المخاوف أن الاتصال بالحياة الأوربية على مافيها من آثام وموبقات، مما لا يبيحه ديننا، خليق بأن يغري بما فيها من إثم، ويرد على ذلك بأن الحياة الأوربية ليست إثماً كلها، وأن الاثم الخالص لا يمكن من الرقي، وأن حياتنا الحاضرة وحياتنا الماضية ليست خيراً كلها، وإن الخير الخالص لا يدفع إلى

الانحطاط.. ثم يضيف «نحن لا ندعو إلى آثامهم وسيئاتهم، وإنما ندعو إلى خير ما عندهم.. ندعو إلى الاتصال بأوربا والأخذ بأسباب الرقي التي أخذوا بها، لا ندعو إلى أن نكون صوراً طبق الأصل للأوربيين فذلك شيء لا يدعو إليه عاقل.. ليس على حياتنا الدينية بأس من الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية، فقد أخذ المسلمون في قوة بأسباب حضارة الروم والفرس.. أنا لا أدعو إلى شيء عملي وإنما أدعو إلى شيء نفسي، فمن السخف أن ندعو إلى الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية وقد دخل الراديو إلى الأزهر الشريف.

وثانية هذه المخاوف تتعلق بالخشية على شخصيتنا القومية وعلى ما ورثناه، وأنا لا أدعو إلى أن ننكر أنفسنا أو نجحد ماضينا ولا أن نفني في الأوربيين، كيف يستقيم ذلك وأنا إنما أدعو إلى أن نثبت لأوربا ونحفظ استقلالنا من عدوانها وطغيانها.. إنما تتعرض مصر للفناء إذا عجزت عن أن تقاوم أوربا بسلاحها وتجاهدها بما تعرف من وسائل الجهاد. وثالثة هذه المخاوف أنه قد يقال أن الحضارة الأوربية مسرفة في المادية لا تتصل بالروح، وأن أوربا قد زهدت في حضارتها وأن جماعة من علمائها وفلاسفتها أخذوا يرغبون عنها ويلتمسون لعقولهم وقلوبهم غذاء في روحانية الشرق.. ونقول أنه من السخف أن يقال أن الحضارة الأوربية قليلة الحظ من المعاني السامية التي تغذو الأرواح والقلوب، إن هذه الحضارة نتيجة العقل والخيال والروح الخصب المنتج.. وما أعرف أن للشرق القريب هذا روحاً يميزه عن أوربا ويتيح له التفوق عليها.. إن شرقنا القريب هو مهد العقل الذي يزدهر في أوربا[٢٥] .

(ب) قضايا التعليم والثقافة

وسوف نعرض لأهم القضايا التي أثارها في كتابه، بعد قضية الهوية والانتماء والتوجه الحضاري فمن الملاحظ أنه عرض خلال الجزء الأكبر من كتابه الكثير من القضايا المتعلقة بالتعليم ونظمه، وسياساته ومؤسساته، والكثير من الموضوعات ذات الطابع الفني البحت مما تحفل به الهيئات التنفيذية الفنية، فأطلق لنفسه العنان وراح يبدي آراء إصلاحية على درجة من الأهمية.. وسنركز هنا على الموضوعات المتصلة بسياسة التعليم وفلسفته، وهي الموضوعات التي حملت آراء ووجهات نظر هامة لطه

حسين، وهي آراء لا تبدو بعيدة عن واقعنا الآن.

١ - مسألة التعليم الأجنبي في مصر :

وهو التعليم الذي قام مستظلاً بالامتيازات الأجنبية غير حافل بالدولة ولا خاضع لسلطانها، ولا معنى إلا نشر ثقافة البلاد التي جاء منها، وتكوين التلاميذ المصريين على نحو أجنبي خالص، فيضرب أمثلة لأنواع هذا التعليم، الذي لا يحفل بمصر ولا يفكر فيها، ويدفع المصريون أبناءهم إليه عن رضى واختيار ويطالب بأن تشرف الدولة عليه، وأن يعلم التاريخ القومي والجغرافية المصرية، وكذلك الدين القومي «فنحن من غير شك نعتمد على أن الدين مقوم خطير من مقومات الوطنية المصرية فيجب أن يشترك المصريون جميعاً في هذا الجزء الأساسي من أجزاء التعليم «وكان طه حسين في مناسبة أخرى سابقة قد ذكر أن المسلمين قد عدلوا منذ عهد بعيد عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساساً للملك وقواماً للدولة»، لقد كانت المناسبة الأولى الحديث عن المنافع في علاقات الدول وتوجهاتها، بينما هو في المناسبة الأخيرة يتحدث الخشية على الشخصية الوطنية ومقوماتها ويعبر عن حرصه على السيادة الوطنية، وباختصار شديد طالب الدولة بأن تشرف على هذه المدارس وأن تكفل لأبنائها التعليم الصحيح للغة القومية والدين القومي «فالدين مقوم من مقومات الشخصية المصرية وأنا مؤمن فيما بيني وبين نفسي أشد الايمان»[٢٦] .

٢ - ديمقراطية التعليم ومجانيته :

وبخصوصها يذكر طه حسين أن الدولة الديمقراطية ملزمة بنشر التعليم الأولي، ليكون وسيلة في يد الأفراد ليستطيعوا أن يعيشوا، ولتكوين الوحدة الوطنية واشعار الأمة حقها في الوجود المستقل الحر، وأضاف أن الدستور فرض ذلك على الدولة، وأن تقصيرها في ذلك إثم في حق الدستور، والحرية لا تستقيم مع الجهل، كما أنه من المضحك أن يقال أن الشعب مصدر السلطات في بلد كثرته جاهلة غافلة، ورأى كذلك أن الديمقراطية الصحيحة إذا فرضت المساواة بين أبناء الشعب في الحقوق والواجبات فهي لا تقبل أن يفرق بينهم في حرية التعليم.

أما بخصوص المجانية فقد تحدث عن التعليم العام، الذي يلي التعليم الأولي، والذي يفضي إلى التعليم الجامعي أو الفني العالي، باعتبار أنه يكلف الدولة نفقات لا تستطيع أن تنهض بها وحدها، كما أنه ليس إلزامياً، ومن ثم لا يقوم مجاناً، وإنما يقتصر على الذين يستطيعون أن يؤدوا أجره من الطبقات الوسطى والفنية، ولأن من حق الفقراء أن يتعلموا وأن يطمحوا إلى التعليم العام والعالي لتحقيق الديمقراطية، فلابد أن تأخذ الدولة من القادرين أجر التعليم وأن تحط ثقله عن العاجزين، فينظم قبول أبناء هؤلاء ولا يقبل منهم إلا من يثبت استعدادهم الجيد للانتفاع بهذا التعليم، وذلك بإجراء المسابقات الدقيقة المبرأة من العبث والمحاباة ثم يشيد طه حسين - بعد أن كان قد كتب هذا الجزء من حديثه - (في أحد الهوامش) بموافقة البرلمان على طلب نجيب الهلالي بجعل التعليم الابتدائي كله مجاناً، ويعلق بأن ذلك يدل على الرقي، وأنه سوف يشمل التعليم الثانوي ليصبح التعليم كله بالمجان[٢٧] .

٣ - تعليم اللغات الأجنبية :

لقد اقترح طه حسين إرجاء تعليم اللغات الأجنبية إلى مرحلة ما بعد المدرسة الابتدائية، ورأى أن التعليم الابتدائي يجب أن يخلص للثقافة الوطنية وحدها «فنحن نشكو من أن تلاميذنا لا يحسنون لغتهم العربية، وسبب العلة أن التلميذ لا يكاد يدخل المدرسة حتى تتلقفه اللغة الأجنبية، فتستغرق من وقته وجهده ونشاطه ما هو خليق أن ينفق في تعليم اللغة العربية.. فلا نشغله بلغة أجنبية لا يحتاج إليها الآن، ويستطيع أن يتعلمها ويتعمقها حين ينمو عقله وجسمه وملكاته ورأى كذلك أن حاجتنا إلى اللغات الأجنبية لا ينبغي أن تكون مقصورة على الانجليزية والفرنسية، وأن لا نستمد الثقافة إلا منها وطالب وزارة المعارف أن تلغي هذا الاحتكار «فإننا إذا فرضنا على أجيالنا الناشئة ثقافة بعينها، صُغناهم على مثال أصحاب هذه الثقافة، فجعلناهم معرضين للفناء فيهم والانقياد لهم» ويقترح طه حسين تخيير الطالب بين هاتين اللغتين بالاضافة إلى اللغات الايطالية والألمانية والروسية. وطبقاً لأفكاره حول دراسة أصول النهضة أبدئ اهتماماً كبيراً بتعليم اللغتين اليونانية واللاتينية، لا في الجامعة وحدها، بل في التعليم العام قبل كل شيء، معللاً ذلك بأن مصر خضعت للسلطان اليوناني والروماني

وما نشأ عنهما من النظم عشرة قرون لا نستطيع أن نلغيها من تاريخنا الوطني «ومعارضة تعليم هاتين اللغتين معناه القضاء على المصريين بأن يجهلوا تاريخهم وألا يعرفوه إلا عن طريق الأجانب»[٢٨] .

٤ - أما بالنسبة لتعليم اللغة العربية :

فقد ذكر طه حسين أن هذه اللغة قد أصبحت إن لم تكن أجنبية فهي قريبة من الأجنبية، وأن الأزهر أقل المعاهد والبيئات اصطناعاً لها وسيطرة عليها، وطالب بالتشديد على المعلمين في أن يصطنعوا اللغة الفصحى فيما يلقون على تلاميذهم، ثم أوضح ضرورة أن يكون الغرض من الكتابة الابانة والتجلية، لا الالغاز والتعمية، فلا بد أن تكون الكتابة تصويراً صادقاً للنطق، لا أن تصور بعضه وتلغي بعضه وأضاف «أحب أن يعلم المحافظون أني قاومت وسأقاوم أشد المقاومة دعوة الداعين إلى اصطناع الحروف اللاتينية لأسباب لا أطيل بتفصيلها الآن، ولكن هذه المقاومة لن تغني شيئاً إذا لم نسرع إلى اصلاح الكتابة لنبطل هذه الدعوة من أساسها»[٢٩] .

٥ - تطوير التعليم بالأزهر :

شغلت هذه القضية حيزاً كبيراً في تفكير طه حسين، وقد ذكر في البداية أن من الخير للأزهر أن لا يكون حرباً علي الحياة الحديثة، وإنما الواجب أن يكون ملطفاً لها مخففاً لأثقالها، ملائماً بينها وبين ما يأمر به الله من الخير والمعروف مباعداً بينها وبين ما ينهي عنه من الشر والمنكر، وذلك لا يكون إلا إذا عرف رجال الدين حياة الناس كما يحيونها واتقنوا العلوم بأسرارها ومشكلاتها «وسبيل ذلك أن يتثقف الأزهر بالحياة الحديثة كما يتثقف بها غيره من المعاهد، وأن يمتاز بما لا تمتاز به من الثقافة الدينية الخالصة.. إن طبيعة الحياة ستصوغ الأجيال الناشئة والمقبلة صبغة حديثة أوربية، فلابد أن يجاري الأزهر هذا التطور ليكون اتصاله بالأجيال الناشئة والمقبلة أجدى وأقوى.. فالاسلام دين الحرية والعلم والمعرفة كما تفهمها الأجيال على اختلافها.. ولا ينبغي أن تكون محافظة الأزهر علي القديم مانعة له من الأخذ بأسباب الحديث»...

ثم يهاجم طه حسين فكرة إنشاء الأزهر لدرجات جامعية على غرار ما تنشئ الدولة

فينتج عن ذلك نظام ثنائي غريب في التعليم وفي اجازاته، ويرى أن يمتاز الأزهر بالتعليم الديني علمياً وعملياً للنهوض بالأعباء الدينية التي تحتاج إليها الحياة العامة من جهة، وللتفرغ للبحث العلمي الخالص في شئون الدين من جهة أخرى «فأما إذا أراد الأزهر أن يشارك شبابه في غير هذه المناصب الدينية فحقه لا جدال فيه، ولكن ينبغي أن يسلكوا إلى هذه الاعباء طرقها الطبيعية وأن يتعلموا في معاهد الدولة المدنية ويظفروا باجازاتها.. ذلك أحرى أن يلغي هذا النظام الثنائي الغريب وأن يحقق الوحدة العقلية في مصر» وقد طالب طه حسين بأن تفتح أبواب الجامعة والمعاهد العالية للأزهريين كما تفتح أبواب الأزهر للجامعيين، فيومئذ تمتزج الثقافة الدينية بالثقافة المدنية امتزاجاً حسناً مفيداً، ويومئذ تفتح أبواب الأزهر ونوافذه للهواء الطلق والنور المشرق، ويلتقي العلم والدين لقاء حسناً لا يتيح لمصر والمسلمين إلا خيراً (٣٠) .

٦ - الترجمة والنقل عن اللغات الأوربية :

وقد أقر طه حسين في البداية أننا أقل الأمم حظاً من الترجمة، ومصدر ذلك أننا نجهل كثيراً من اللغات الأوربية، وأن الذين يعرفون قليلاً من هذه اللغات لا يكادون يعرفونها معرفة حسنة وأن الذين يحسنون هذه اللغات لا يكادون يقرأون ما يذاع فيها من علم وأدب، أما الكثرة فهي تجهل اللغات الأوربية جهلاً تماماً ولا تجد من التراجم ما يضع عنها إصر هذا الجهل، فتزدري أوربا وحضارتها، ومن يعجبون بحضارتها. ويربط بين التأليف والترجمة فيذكر أننا لن نؤلف التأليف الذي يرضى حاجتنا إلى العلم والأدب إلا إذا ترجمنا وأكثرنا من الترجمة فذلك حريّ أن يمنحنا ما نقرأ أولاً وأن يدفع كثيراً من الشباب إلى التقليد والمحاكاة، وقد فرغ الناس من إثبات أن التقليد عنصر من أرقى عناصر الحياة العقلية وأقواها. واقترح بأن تنشئ الدولة مكتباً للترجمة لينهض بنقل الآثار الأدبية والعلمية والفلسفية الخالدة التي أصبحت تراثاً للانسانية كلها والتي لا يجوز للغة حية أن تخلو منها، وذلك لاغناء اللغة نفسها ومنحها ما تحتاج إليه من المرونة، ولارضاء الكرامة القومية(٣١) .

٧ - خصـائص الثقافـة المصريـة :

ويحاول طه حسين تشخيص مميزات هذه الثقافة بعد أن يتساءل: هل هناك ثقافة مصرية؟ فيجيب بأنها موجودة بخصالها وأوصافها التي تنفرد بها عن غيرها من الثقافات، وأول هذه الصفات أنها تقوم على وحدتنا الوطنية، وتتصل اتصالاً قوياً عميقاً بنفوسنا المصرية الحديثة، كما تتصل اتصالاً قوياً عميقاً بنفوسنا المصرية القديمة أيضاً، تتصل بوجودنا المصري في حاضره وماضيه.. فليست الثقافة وطنية خالصة ولا انسانية خالصة، ولكنها وطنية وانسانية معاً.

ثم يحلل طه حسين عناصر الثقافة المصرية فيذكر أنها التراث المصري القديم، وهي التراث العربي الاسلامي، وهي ما كسبته وتكسبه كل يوم من خير ما أثمرت الحياة الأوربية الحديثة.. هي هذه العناصر المختلفة المتناقضة فيما بينها تلتقي في مصر فيصفّى بعضها بعضاً ويهذب بعضها بعضاً، وينفي بعضها من بعض ما لا بد من نفيه من الشوائب التي لا تلائم النفس المصرية، ثم يتكون منها هذا المزاج النقي الرائق، الذي يورثه الآباء للأبناء وينقله المعلمون إلى المتعلمين فالعلم لا وطن له، ولكنه إذا استقر في وطن من الأوطان، تأثر باقليمه وبيئته ليستطيع أن يتصل بنفوس ساكنيه(٣٢) .

-٣-

لقد أثار هذا الكتاب خلافاً حول تفسير الآراء التي تضمنها، فكانت ردود فعله متباينة، فاحتفى به دعاة الفكر التحرري (اللبرالي)، والمؤمنين بضرورة اقتباس نظم وأفكار الغرب وحضارته ورأوا فيه حججاً تؤكد صدق دعواهم خاصة وقد استطاع طه حسين أن يستقرئ التاريخ، بمعنى من المعاني، ليثبت أن نهضة مصر وتقدمها أمر مرهون بتوجهها - كما كان في الماضي - نحو أوربا وعالم البحر المتوسط، حيث الحضارة بلغت أرقى صورها، وأصبحت هي النموذج والمثال.

كما رأى فيه بعضهم تطوراً نحو العلمانية في فهم القومية من جانب طه حسين، وأنه حتى لا يتهم بتنكره لهويته المصرية المسلمة، ذهب إلى أن الاسلام من مقومات

الفكر الأوربي، وأن مصر المسلمة تعد أصلاً من أصول الحضارة الأوربية، وأن باستطاعتها أن تقتبس أسس المدنية الأوربية بغير حاجة لاقتباس دينها[٣٣] . كما رأى البعض الآخر في هذا الكتاب آخر صوت في الثقافة العربية يطرح الثقة بالحضارة الأوربية، يدعو إلى قبولها بجرأة وانفتاح قبل أن تقضي «الردة» العربية الاسلامية ضد أوربا على اتجاه التغريب العلماني الصريح[٣٤] .

هذا بينما لقى الكتاب معارضة شديدة من جانب المحافظين ودعاة السلفية، وقد رد عليه الشيخ حسن البنا متسائلاً: إذا كنت تريد تقليد الأوربيين في الدعوة إلى العلم والخلق وإلى النظام، أفترى أن الاسلام لم يأمر بذلك؟ ولماذا تدعونا إلى ذلك باسم أوربا الناشئة المتخطبة ولا تدعونا إليه باسم الاسلام؟[٣٥] وهكذا رأى البنا في الاسلام وتراثه نفس الخصائص والأسس التي اعتمدت عليها أوربا في نهضتها. كما رأى سيد قطب أن طه حسين تجاهل الشرق العربي، وتجاهل الوحدة العقلية بين مصر وبين هذا الشرق العربي الاسلامي، وأنه كان بوسعه أن يقرر أن الحضارة الأوربية ضرورة زمنية لابد منها نتيجة أن أوربا سبقتنا في مدارج الرقي وأن مدنية العالم دواليك وأن أمم الشرق لهذا السبب تأخذ اليوم بحضارة الغرب على اختلاف عقلياتها[٣٦] . لقد اعتبر خصوم الكتاب كذلك أن طه حسين تجاهل العرب كأمة، لأنه نظر إلى المنافع المادية وحدها واعتبرها قوام الدول، وأنه لذلك زعم بأن سبيل نهضة العرب هو أن ينوبوا في الغرب ليصبحوا جزءاً منه[٣٧] .

والذي لم يحفل به نقاد طه حسين، سواء ممن أيدوه أو عارضوه، أنه وهو يستكمل عناصر موضوعه في جرأة بالغة، وحماسة فياضة، كان يردد فكرة الندية لأوربا، والمشاركة في الحضارة الانسانية، خيرها وشرها، حتى وأن كانت هذه الحضارة الانسانية العامة، ترتدي الآن رداء أوربياً وتنطق بحروف لاتينية. كما أكد كذلك على مفهوم الأخذ بأسباب القوة، وبالأسس التي قامت عليها الحضارة، مع تأكيده على الحفاظ على الذات من الفناء وفكرة الخصوصية الثقافية، وأن كانت جزءاً من العمومية الانسانية. فضلاً عن تأكيده فكرة مقاومة أوربا والثبات لها.

وهذه الأفكار في تقديرنا، وأن لم تكن في مجملها جديدة على الفكر العربي، إلا أن

طه حسين نجح في استجماعها في نسيج فكري متكامل، كمشروع للنهضة، على نحو ما صاغه، وأن لم تتوازن وتتعادل فيه علاقات المشروع ببعضها البعض، الاسلام وعلاقته بالمدنية الحديثة - كما كان يسميه محمد عبده - أو الاسلام والغرب الحضاري. فبدا طه حسين كمن يحاول نزع مصر من أمتها العربية الاسلامية، لتوجيه انتمائها وتقدمها وجهه «بحر متوسطية» تلحقها بأوربا وحضارتها، بل لقد أشار اشارة عابرة إلى أن الشرق العربي ذاته له نفس الانتماء ويتجه نفس الوجهة.

وبالرغم من اشارته إلى الهوية والخصوصية الثقافية والشخصية القومية، وضرورة الحفاظ عليها، إلا أن ذلك لم يلق نفس التأكيد والاهتمام بعناصرها وأصولها، على نحو ما فعل بالنسبة لحضارة الغرب، فانشغل بتوجيه الانتماء أكثر من تأكيده على تلك الخصوصية في مواجهة أوربا وظهر تركيزه على فكرة صلات مصر وارتباطها القديم ببلاد اليونان، وتأثيرها فيها وتأثرها بها، ليثبت - تاريخياً - أن هذه الصلات والمؤثرات أثبت وأبقى من صلتها بالعروبة والاسلام، وليبرر دعوته بضرورة استئناف هذه الصلات القديمة، في شكلها الأوربي الجديد، من خلال عامل جغرافي هو البحر المتوسط.

لقد قفز طه حسين فوق عشرة قرون من العروبة والاسلام ليثبت مقولته الجديدة، معطياً العشرة قرون السابقة عليها (عصور اليونان والرومان) اهتماماً كبيراً، يفسره دعوته لتعليم اليونانية واللاتينية، متجاهلاً أن يكون للشرق العربي الاسلامي وجوداً خارج نطاق البحر المتوسط. كما قفز بالمثل على أكثر من قرن ونصف من الزمان الأوربي، كانت نهباً استعمارياً واستغلالاً وفرضاً للتبعية على الشرق القريب والبعيد على السواء فبدا طه حسين مأخوذاً بالجوانب الابداعية والعلمية المنتجة من الحضارة الأوربية، دون تأكيد بنفس القدر، على الجوانب الأخرى، العدوانية بشكل خاص، من تلك الحضارة.

وربما كان من المفيد حقاً أن نفهم من استدلالات طه حسين وأسانيده التاريخية حقيقة هامة مفادها أن الأوربيين ليسوا أرقى وأفضل منا، وإننا لسنا أقل منهم، ومن ثم فإننا ننهض ونتطور بانتهاج أسباب الحضارة التي انتهجوها، وهي أسباب انسانية عامة، وتلك هي سنة التطور.. فهل كان تقرير هذه الحقيقة يقتضي منه المغالاة بالدعوة

لأن نسير سيرة الأوربيين وأن نعيش عشتهم؟

وما أشبه الليلة البارحة! حين أراد صه حسين عام ١٩٢٦ أن يثبت أن الشعر الجاهلي في معظمه مزيف ومنتحل، وقبل أن يشرع في دراسة هذه القضية القديمة بمنهج جديد قدم فروضاً ومقدمات نظرية، صاغها في عبارات لم تضع الدين موضعه من التقديس والاجلال، ما كان أغناه عنها، فما كانت تؤثر بالضرورة في بحثه لو جاء خلواً منها، فلقى ما لقيه من عنت وبلاء واتهام بالكفر والضلال على نحو ما هو معروف في قضية كتابه «في الشعر الجاهلي» فهل كان طه حسين عام ١٩٣٨ بحاجة إلى الدعوة إلى ابتكار فكرة حضارة البحر المتوسط لينادي بالحاق مصر بها، وأن يدعو المصريين إلى أن يعيشوا كما يعيش الأوربيون وأن يسيروا سيرتهم، وهو الذي يعرف الخصوصية ويؤيد الاستقلال والثبات لأوربا؟ وإلا فكيف تستقيم فكرة الحفاظ على الذات والاستقلال وأن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم في غير تردد ولا اضطراب؟ وإذا كان طه حسين قد أراد طمأنة الأوربيين على مصالحهم في مصر بعد توقيع اتفاقية إلغاء الامتيازات عام ١٩٣٧، بأن رفع صوته داعياً لربط مصر بحضارة أوربا من خلال عالم البحر المتوسط، وهذا ما جعله في أكثر من موضع يؤكد بأننا «التزمنا التزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين» فهل يمكننا أن نفسر هذه الأفكار بأنها صياغة سياسية فرضتها ظروف مصر بعد توقيع الاتفاقية، على اعتبار أنه لم يهمل حقائق أكثر أهمية في سياق تقريره - تتعلق بالندية والخصوصية الثقافية والمشاركة والأخذ بأسباب الحضارة والتوسل بوسائلها؟

إذا كان الأمر كذلك، فإن طه حسين الذي انبهر كثيراً بالغرب ومناهجه وبدا مستغرباً لم يخرج عن التوفيقية القديمة التي أرساها محمد عبده، والتي حاولت إزالة التناقض، أن لم تقم الجسور بين الاسلام والمدنية الحديثة. وأخيراً فإن القضايا الأخرى، التي أثارها طه حسين والمتعلقة بالتعليم والثقافة، من الملاحظ أنه نجح في تشخصيها، وفي تصوير اضطراب أساليبها في مصر، الأمر الذي يؤثر في عقول الناشئة والشباب، فطالب في غير تردد بأن تتوحد الأساليب وأن تتجدد لتنمية الشعور الوطني، وأهاب بالدولة أن تتحمل مسئولياتها كاملة بالاشراف على جميع مراحل

التعليم العام. وإذا كان قد دعا إلى الزامية التعليم ومجانيته في بعض مراحله الأولى، وأنه عندما تولى وزارة المعارف عام ١٩٥٠ تجاوز دعوته تلك عملياً بجعل التعليم العام مجانياً، فإن ثمة قضايا طرحها طه حسين لم يتجاوزها الزمن، وكأن كلمات وآراء طه حسين بشأنها عام ١٩٣٨ مازالت تصلح لزماننا.

فمازالت قضية مجانية التعليم مطروحة، وكذلك قضية المدارس الخاصة والأجنبية التي تحتاج إلى اشراف الدولة وتوجيهها، ومازالت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية لا تواكب متطلبات العصر ونهضته. وما بقاء هذه المشكلات إلا دليل على اضطرابنا وضعفنا، الأمر الذي يدفعنا من جديد إلى تلمس مستقبل جديد للثقافة.

الهوامش والمراجع

(١) انظر كتاب أحمد علبي : طه حسين رجل وفكر وعصر، دار الآداب بيروت ١٩٨٥، ص ٤٢٥.

(٢) طه حسين : من بعيد، الطبعة التاسعة، بيروت ١٩٨٢، ص ٢٠٦، ٢١٠، ص ٢١٢-٢١٣، ثم كتابه رحلة الربيع والصيف، الطبعة التاسعة، بيروت ١٩٨١، ص ١٠٦-١٠٧.

(٣) محمد محمد حسين : أزمة العصر، ط (٢) بيروت ١٩٧٩، ص ١٢١-١٢٥ ويتهم طه حسين بمنافقة موجة الكتابات الاسلامية بكتابه على هامش السيرة.

(٤) غالي شكري : طه حسين واشكالية النهضة، دراسة بندوة جامعة القاهرة عن طه حسين (نوفمبر ١٩٨٩). ص ٥-٦ (غير منشورة).

(٥) اتحاد الجامعة المصرية واتحاد كلية الحقوق : واجبنا بعد المعاهدة، محاضرة طه حسين بعنوان «واجبنا الأدبي بعد المعاهدة» في ١٩٣٦/١٢/١٩، القاهرة في ١٩٣٧.

(٦) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر، مطبعة المعارف بمصر ١٩٣٨.

(٧) انظر كتاب ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة كريم عزقول، بيروت ١٩٦٨ ص ٣٩١-٣٩٣.

(٨) مجلة الهلال : ابريل ١٩٣١ ص ٨٢١ وما بعدها، استفتاء حول «حضارتنا القادمة» وراجع كذلك أحمد علبي، المرجع السابق ص ٤٤٦.

(٩) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ص ١١.

(١٠) المصدر السابق ص ١٣.

(١١) المصدر السابق ص ١٤-١٥.

(١٢) المصدر السابق ص ١٦-١٩.

(١٣) أحمد زكريا الشلّق : حزب الأحرار الدستوريين دار المعارف بمصر ١٩٨٢ ص ٥٠٦-٥٠٧

(١٤) سيد قطب : نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط (١) ١٩٦٩، ص ١٢.

(١٥) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ص ١٩.

(١٦) المصدر السابق، ص ١٤.

(١٧) المصدر السابق، ص ١٩-٢١.

(١٨) المصدر السابق، ص ٢٢-٢٤.

(١٩) المصدر السابق، ص ٢٩-٣٠.

(٢٠) المصدر السابق، ص ٣١.

(٢١) المصدر السابق، ص ٣٤-٣٦.

(٢٢) راجع كتاب الحكومة المصرية : الاتفاق الخاص بإلغاء الامتيازات في مصر، الوثائق الموقعة بمونترو في ٨ مايو ١٩٣٧، بالقاهرة ١٩٣٧.

(٢٣) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ص ٣٧، ٤١، ٤٣، ٤٤.

(٢٤) المصدر السابق، ص ٤٤ وقد كرر طه حسين كلمة «أوربا وأمركيا» في نفس الصفحة ثلاث مرات.

(٢٥) المصدر السابق، ص ٤٦-٦٠.

(٢٦) المصدر السابق ص ٦٢-٧٧، وقبل ذلك ص ١٩-٢٠ للمقارنة.

(٢٧) المصدر السابق ص ٧٩-٨٠ والهامش الذي أضافه وعلق عليه ص ١١١.

(٢٨) المصدر السابق ص ١٩٤-٢٠٢، ٢٢٣.

(٢٩) المصدر السابق، ص ٢٣٧-٢٤٦.

(٣٠) المصدر السابق، ٣٥٣-٣٥٦.

(٣١) المصدر السابق، ص ٣٦٩-٣٧١.

(٣٢) المصدر السابق ص ٣٩١-٣٩٤.

(٣٢) راجع كتاب نازك سابايارد : الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، بيروت ١٩٧٩ ص ٢٣٨ وما بعدها، ثم كتاب ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ص ٣٩٣ وما بعدها.

(٣٤) محمد جابر الأنصاري : تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي، الكويت ١٩٨٠، ص ٩٤.

(٣٥) عن كتاب أنور الجندي : طه حسين في ميزان الاسلام ط (١) القاهرة ١٩٧٦، ص ٨٥-٨٧.

(٣٦) سيد قطب : المرجع السابق، ص ١٠-١٣، ص ٢٧-٢٨.

(٣٧) محمد محمد حسين : حصوننا مهددة من داخلنا، ط (٦) بيروت ١٩٨١، ص ١٢٢-١٢٣.